مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد 10 / العدد:2 (2022)، ص: 735- 746

الدّلالة البيانيّة لأسلوب الطباق في القرآن الكريم (آيات الجفاف والخصب أنموذجا)

The graphic significance of counterpoint style in the Holy Quran (the verses of the drought and fertility typicaly)

رضا براكني[1]
[1]كليّة العلوم الإسلاميّة، خروبة جامعة الجزائر (1)- الجزائر
ghifare.0108.br.2018@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/03/30 تاريخ القبول: 2022/04/07 تاريخ النشر: 2022/05/10

الملخص:

يهتمّ هذا البحث بإظهار خصائص أسلوب الطّباق وأهمّ مميّزاته، وكذا فوائده في اللّغة عامّة، وفي القرآن الكريم خاصّة، وذلك للوقوف على الدّور الذي يمكن أن يؤدّيه الطّباق لتحقيق المتعة اللّغويّة، ...والبيانيّة للقرآن الكريم، وللوقوف أيضا على غوامض وعجائب هذا الأسلوب البلاغيّ الرّائع.

بدأت البحث بالكلام عن تعريف الطّباق، ثمّ انتقلت للحديث عن بلاغة الطّباق وبيان فوائده، من الناحية الدلالية والبلاغية والبيانية وكذا الصوتية، وبعد ذلك انتقلت للدّراسة التّحليليّة حيث بدأتها بنظرة إحصائيّة للطّباق في القرآن ككلّ، لأنتقل بعدها لتحليل آيات الجفاف والخصب بيانيا، ثم ختمت البحث ببعض النتائج والملاحظات، والذي يمكن أن نستخلصه من البحث هو أنّ الطّباق في القرآن الكريم أثّر تأثيرا كبيرا وإيجابيّا في بيان المعنى وإيضاحه، وتأكيده للمتلقي في أرقى صورة، فكان بحقّ شاهد صدق على إعجاز القرآن المتمثّل في براعة نظمه، وجمال تركيب أسلوبه.

كلمات مفتاحية: مطابقة ؛ التّضادّ ؛ التّطبيق ؛ مقاسمة ؛ التّكافؤ.

Abstract:

This research is concerned with showing the characteristics of the method of the dish and its most important features, and its benefits in the general language and in the Quran in particular, in order to find out the role that can be played by the dish to achieve the linguistic pleasure and semantic and vocal of the Holy Quran, and to stand also on the obscure and wonders of this rhetorical method wonderful.

I then began to talk about the definition of the class. Then I moved on to talk about the eloquence of the lesson and its benefits. Then I moved to the analytical study where I began with a statistical and vocal view of the dish in the Quran as a whole. And then moved to analyze the signs of drought and fertility graphically, and then conclude the research with some results and notes.

Keywords :Matching ; contrast ; application ; sharing ; valence

المؤلف المرسل: رضا براكني

1. مقدمة:

يعدّ الطّباق إحدى فنون البديع المعنويّة (التي تهتمّ بالمعنى) التي أتت بكثرة في القرآن الكريم؛ لأنّه يبرز المعاني ويؤكّدها، ويتجاوز ظواهر الألفاظ إلى بواطنها، فلا يقف عند الألفاظ فحسب، بل يتعدّاها بالغوص في أعماق المعاني، ويوجد دلالات إيحائيّة كثيرة للجمل التي يقع فيها.

والإشكاليّة المطروحة تتمثل في: ماهية الخصائص والمميّزات التي يتميّز بها هذا النّوع من الأساليب البلاغيّة ؟ وهل تكمن فائدة الطّباق في القرآن الكريم في تأكيده للمعنى وإبرازه أم له فوائدٌ أخرى، وما هي السّور التي أتى فيها بكثرة، وكم مرة ذكر في القرآن الكريم، هذا الذي أردت أن أقف عليه من خلال هذا البحث، وبالتحديد مع آيات الجفاف والخصب في القرآن الكريم، لوجوده بكثرة فيها، والذي يساعدنا في الإجابة على كلّ تلك الأسئلة هو المنهج الإحصائيّ التّحليليّ، بتتبّع كلّ الآيات التي ورد فيها أسلوب الطّباق مع صورة بيانية، مع الاستعانة بكتب التّفسير والبلاغة، لتحديدها بدقّة، ولقد سرت في البحث متّبعا في ذلك خطّة هي كالآتي: قسّمت البحث إلى قسمين:

- **قسم نظري:** كان بمثابة القاعدة الأولى للموضوع، وتناولت فيه: تعريف الطّباق لغة واصطلاحا، وبيان بلاغته من النّاحية الفنّيّة، وفوائده.

- **قسم تطبيقي:** وبدأته بذكر نسبة مجيء الطّباق في القرآن الكريم في كلّ سوره، وبعده تحليل الطّباق الموجود في آيات الجفاف والخصب.

أمّا الخاتمة: فقد كانت عبارة عن مجموعة من النّتائج المتوصّل إليها في هذا البحث الشيّق مع أحد الأساليب البلاغيّة الرّائعة.

مبحث الدّراسة النّظريّة:

2. تعريف الطّباق لغة واصطلاحا:

المفهوم اللّغويّ للطّباق هو: الجمع بين الشّيئين، تقول: طابق فلان بين ثوبين إذا جمعهما، ثمّ استعمل في غير ذلك فقيل: طابق البعير في سيره، إذا وضع رجله موضع يده، وهو راجع إلى الجمع بين الشّيئين. ينظر: (العسكري، الصناعتين، صفحة 316 . 317).

وفي الاصطلاح يعرّف الطّباق في الكلام على أنّه: " الجمع بين الضّدّين، أو الجمع بين الشّيء وضدّه، أو الجمع بين لفظين متضادّين (متقابلين) في الكلام: كالبياض والسّواد، واللّيل والنّهار...الخ ". (الزناد، دروس البلاغة العربية، صفحة : 172)، فالقاسم المشترك بين التّعريف اللّغوي والاصطلاحي يتمثّل في الجمعبين شيئين.

وإذا ما أردنا أن نشرح أكثر ونفصّل في التّعريف الاصطلاحي نقول إنّ الطّباق: هو الجمع بين الشّيء وضدّه في الكلام (أو في الجملة) من خلال لفظتين متضادّتين، يتنافى وجودهما معا في شيء واحد، في وقت واحد، وقد يكونا بلفظين متّحدين في الاسميّة، أو الفعليّة، أو الحرفيّة، أو مختلفين، كأن يكون أحد اللّفظين اسما والآخر فعلا.

هذا ما اتّفق عليه البلاغيّون في تعريفهم للطّباق من النّاحية الاصطلاحيّة، أمّا ما يخصّ أسماؤه فقد جاء في كتبهم الأسماء التّالية: **المطابقة**، ينظر: (ابن معصوم، أنوار الربيع، صفحة : 31، ج 02)، **والتّضاد**،ينظر: (القزويني، تلخيص المفتاح، صفحة : 175)، **التّطبيق**، ينظر: (حسين عبيد، المنهج البلاغي عند الجرجاني والقزويني، صفحة : 64)، **المقاسمة**، **ينظر:** (الزناد، دروس البلاغة العربية، صفحة : 172)، **التّكافؤ**، **ينظر:** (أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، صفحة : 374، ج 01).

أمّا **المطابقة** لغة: فقال ابن منظور بأنّها تعني: الموافقة؛ لأنّ التّطابق: هو الاتّفاق، ينظر: (ابن منظور، لسان العرب، صفحة : 209، ج 10، حرف القاف، فصل الطاء المهملة)،وهذا التّعريف لا يخالف تعريف الطّباق لغة؛ لأنّ الاتّفاق يؤدّي إلى الاجتماع، مثله مثل: **التّطبيق**: المأخوذ من الطّبق: غطاء كلّ شيء، تقول: طَابَقَهُ مُطَابَقَة وطِبَاقًا، قيل: التّطبيق أن توضع الكفّ اليمنى على اليسرى ملتصقة، فيقال: طابقت بينهما أي: جمعتهما على حذو واحد، وتطابق الشّيئان: إذا تساويا. ينظر: (ابن منظور، لسان العرب، صفحة : 209، ج 10، حرف القاف، فصل الطاء المهملة).

و**التّضاد** لغة: هو الخلاف، فضدّ الشّيء خلافه أو عكسه، ينظر: (ابن منظور، لسان العرب، صفحة : 263، 264، ج 03، حرف الدال، فصل الضاد المعجمة)، و**المقاسمة:** من تَقَسَّمُوا الشَّيء واقْتَسَمُوه وتَقَاسَمُوهُ، وقَسَمُوهُ بينهم، أي: جعلوه نصفين أو شطرين أو جزأين، وسمّي الطّباق بذلك لأنّه يكون بين لفظتين لا ثالث لهما، ينظر: (ابن منظور، لسان العرب، صفحة : 478، ج 12، حرف الميم، فصل القاف)، وتعني **التّكافؤ لغة:** التّساوي، والكُفْءُ: النَّظِيرُ والمسَاوِي. ينظر: (ابن منظور، لسان العرب، صفحة : 139، ج 01، حرف الهمزة، فصل الكاف).

3. بلاغة الطّباق وسر جماليّة أسلوبه:

سرّ جمالية أسلوب الطباق – في اللغة عامة وفي القرآن خاصة –ما يحتويه من فوائد ودلالات، فله فوائد لغوية دلالية، وله فوائد أيضا فنية (بلاغية بيانية)، ودلالات صوتية.

1.3. بلاغة الطباق من النّاحية اللّغوية الدّلاليّة :

تكمن فائدة الطّباق من النّاحية الدّلاليّة في النّقاط الآتية:

- يوضّح المعنى، ويؤكّده ويقوّيه، ويثبته في الذّهن، ويبرزه في صورة جليّة أحيانا، تزيد الكلام حسنا وتكسبه جمالا، فبالأضداد تتّضح الأشياء وتعرف وتبرز للعيان، يقولون: الضدّ لا يعرف إلاّ بضدّه والضدّ يظهر حسنه الضدّ.
- ومن فوائده يوجز الكلام ويختصره : قال تعالى: " *وما يستوي الأعمى والبصير، ولا الظلمات ولا النور، ولا الظل ولا الحرور، وما يستوي الأحياء ولا الأموات* ". [سورة فاطر، الآية: 19–22]، فانظر إلى عظيم هذه المطابقة، وما فيها من الوجازة، فقد جمع بين: "*الأعمى*": ويقصد

به الكافر، ويعني به الجهل والضلالة وعدم الرّؤية، وبين: " *البصير* ": ويقصد به المؤمن ويعني به العلم والهدى ووضوح الرّؤية، وجمع أيضا بين: "الظّلمات" ويقصد بها الضّلال، وبين: " *النّور*" ويقصد بها الهداية، وجمع بين: " *الظّلّ* ": والمراد به نعيم الجنّة، وبين: "*الحرور*": والمراد به عذاب النّار، وبين: "*الأحياء* " و"*الأموات* ": وهما المؤمنين والكافرون، ولكلّ ضدّ من هذه الأضداد التي تتطابق مع بعضها البعض معاني عميقة ودقيقة ومتشعّبة.

- يعطي تفسيرا واضحا للكلام والمغزى منه، يوصل المعلومة إلى المتلقي بتفصيل دقيق، ويزيل الشّك، ويفيد الحصر، قال تعالى:" *لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك* "، [سورة البقرة، الآية: 68]، قال ابن كثير في تفسير الآية أي: " لا كبيرة هرمة ولا صغيرة لم يلحقها الفحل ". (ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، صفحة : 449، مج 01).
- يثري النّص ويضفي عليه بالدّلالة(خليفة، دروس في البناء الفني (البلاغة)، 2018م): فقد يدلّ على الكثرة أو القلّة أحيانا، قال تعالى: " *الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم* "، [سورة آل عمران، الآية: 191]، ويدلّ على الإحاطة والعموم والشّموليّة المطلقة والسّعة، مثل: الشّرق والغرب، والسّماء والأرض، ومثل قوله تعالى: " *لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى* "، [سورة آل عمران، الآية: 195]، ويدلّ على التّكامل، مثل: الذّكر والأنثى، ومثل قوله تعالى: " *واعبدوا الله*

ولا تشركوا به شيئا "، [سورة النّساء، الآية: 36]، ويدلّ على كمال القدرة، مثل: الإحياء والإماتة، ويدل أيضا على المفارقة والصّراع، مثل: الخير والشّر، ويدل على الاستحالة: إذا كان في الكلام ما يثبت نفي الجمع بين المتضادّين، ويدلّ كذلك على التّمييز والمقارنة: مثل: الظّلمات والنّور، والخبيث والطيّب، ويدل أيضا على التّوسّط والاعتدال، مثل: ولا تجهر مع ولا تخافت في قوله تعالى: " *ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا* ". [سورة الإسراء، الآية: 110].

2.3. بلاغة الطباق من النّاحية الفنيّة (بلاغية بيانيّة):

أ. الجانب البلاغيّ: إنّ بلاغة الطّباق لا تكمن في الإتيان بلفظين متقابلين في المعنى فحسب، إنّما جمال الطّباق وبلاغته يتجلى في بعده عن التّكلّف، وانسجامه في المعنى، ولا يأتي مجرّداً، وإنّما يجب أن يترشّح بنوع من أنواع البديع الأخرى، يكسوه طلاوة وبهجة، كقوله تعالى: " *تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق*

من تشاء بغير حساب "، [سورة آل عمران، الآية: 27]، ففي العطف بقوله تعالى: "*وترزق من تشاء بغير حساب*"، دلالة على أنّ من قدر على تلك الأفعال العظيمة قدر على أن يرزق بغير حساب من يشاء من عباده، وهذه مبالغة في التّكميل المشحونة بقدرة الله سبحانه وتعالى، فانظر إلى عظم كلام الخالق هنا، فقد اجتمع فيه المطابقة الحقيقيّة، والعكس الذي لا يدرك لوجازته وبلاغته، ومبالغة التّكميل التي لا تليق بغير قدرة الله سبحانه وتعالى. ينظر: (الحموي، خزانة الأدب وغاية الأرب، صفحة : 161، ج 01).

وتكمن أيضا بلاغته في سرّ اختيار اللّفظة الواحدة من الثنائيّة من بين أخواتها المترادفات، مثل: قوله تعالى: " *أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى* "، [سورة الرعد، الآية: 19]، فالمعلوم أنّ ضدّ العلم الجهل، وضدّ العمى الإبصار، ولكنّ التّعبير القرآني قابل بين " *يعلم* " و " *أعمى* " أي: بين العلم والعمى، وما هما بمتضادّتين لفظا، ولكن الجهل الذي هو ضدّ العلم يشبّه صاحبه بالأعمى؛ لأنّه لا يقوى على التّمييز بين الحقائق، ولا شكّ أنّ العمى هنا منظور إليه بمعناه غير الحسّي إذ المراد به الجهل أو الضّلال، وهما ضدّان لعلم والهدى، فاختيار هذا اللّفظ كان أكثر دلالة من لفظة: "جاهل"؛ لأنّ فيه تصوير لعمى الضّلال، وليبيّن لنا القرآن الكريم أنّ الجاهل أعمى قلبا وإن كان يبصر بعينيه.

وأيضا تظهر بلاغة المطابقة في تقديم وتأخير أحد الثنائيّات، كما أنّ الطّباق كلّما كان خفيّا غير ظاهر كان أكثر دلالة.

ثمّ إنّ ما وجد في القرآن الكريم من الطّباق فهو مشتمل على العذوبة والجمال والرّونق، كقوله تعالى: " *هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا* "، [سورة الرّعد، الآية: 12]، فقابل بين الخوف والطّمع مع التّقسيم البديع، إذ ليس في رؤية البرق إلاّ الخوف من الصّواعق والطّمع بالغيث، ولا ثالث لهذين القسمين. ينظر: (ابن معصوم، أنوار الربيع، صفحة : 05، ج 08).

ب. الجانب البيانيّ: كثيرا ما تأتي الصّورة البيانيّة مع الطباق جنبا لجنب في الآية الواحدة، أو في القصة الواحدة، وهذا إن دلّ فإنّما يدلّ على أهميّة الطباق وقيمته في المنظومة اللّغويّة البلاغيّة، وفي المنظومة البيانية الاعجازيّة، والغرض من اجتماع الطباق مع غيره من الصور البيانية هو لتأكيد المعنى وتقويته أكثر فأكثر، ولتحسين الصور البيانية وتزيينها، وذلك كقوله تعالى: " *فأحيا به الأرض بعد موتها* "، [سورة البقرة، الآية: 164]، وكقوله تعالى: " *ظهر*

الفساد في البر والبحر "، [سورة الرّوم، الآية: 41]، وقوله تعالى: " *ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض* "، [سورة الأعراف، الآية: 96]، وقوله تعالى: "*لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم* "، [سورة المائدة، الآية: 66].

والمبالغة والتأكيد، الموجودان في الطباق وفي الصور البيانية يزيدان المعنى قوة وبهاء، والصورة البيانية كلما تضمنت مبالغات وتأكيدات ومطابقات، زادت روعة وتلألأت إعجازا.

3.3. جماليّة أسلوب الطّباق من النّاحية الصّوتيّة :

تتمثّل جماليّة أسلوب الطّباق الصّوتيّة في ارتباط الطّباق وبكثرة بالفاصلة القرآنيّة، ممّا أضفى عليها بهاء ورونقا، وإيقاعا موسيقيّا، قد لا تتذوّقه من دون الطّباق، وأغلب هذا الطّباق كان عن طريق الثنائيّات المتكرّرة في القرآن من مثل: السماء والأرض، الليل والنهار.

ومن الأمثلة على ذلك: قوله تعالى: " *فالله الآخرة والأولى* "، [سورة النجم، الآية: 25]، وقوله تعالى: " *وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء* "، [سورة إبراهيم، الآية: 38]،وقوله: " *وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار* "، [السورة نفسها، الآية: 33]، وقوله: " *ووجدك ضالا فهدى* "، [سورة الضحى، الآية: 07]، وقوله: " *وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى* "، [سورة النجم، الآية: 45]، وقوله: " *ولا الظلمات ولا النور* "، [سورة فاطر، الآية: 20]، وقوله: " *إنه هو يبدئ ويعيد* "، [سورة البروج، الآية: 13].

فإذا اتّحدت الألفاظ المتضادّة في آية، مع غيرها من أواخر الآيات - وبمراعاة التّقديم والتّأخير - لتشكيل الفاصلة، كانت هذه الأخيرة أجمل صوتا وأبهى إيقاعا، وكان الطّباق محلّ نظر واهتمام، ولفت للانتباه، خاصّة إذا لم يوجد فاصل بين المتضادّين، فكلّما قلّت الفواصل بين الألفاظ المتضادّة، كان في الطّباق زيادة للفت الانتباه إليه، وعلاوة على ذلك قد تكون في الفاصلة - بسبب تقديم وتأخير أحد المتضادّات وبسبب حسن اختيار الحرف الموحي في الفاصلة - إعجازا صوتيّا، مثل الطّباق الموجود أحيانا في سورة يوسف عليه السلام: (قوما صالحين ǂ المجرمين)، (إنكم لسارقون ǂ ما كنا سارقين)، فحرف النّون الذي شكّل الفاصلة في الطّباق وفي غيره لم يختر عبثابل اختير لأنّ مخرجه من طرف اللّسان، وهذا يناسب حالة يعقوب عليه السّلام النّفسيّة المحبطة والحزينة، ومعلوم أنّ من كان حاله كذلك أو كان في حالة غضب أو قلق فإنّه قد يتكلّم بكلام من طرف لسانه دون قلبه ودون قصد؛ لذلك قال لبنيه:

"*سوف أستغفر لكم ربي*"، [سورة يوسف، الآية: 98]، بالتّسويف دون قوله: سأستغفر لكم، الذي يحتمل أن يكون اعتقده، إلاّ أنّه لم يبيّنه تخويفا لهم، ومن هنا ندرك العلاقة الوطيدة بين الحالة النّفسيّة وبين مخارج الحروف أو الصّوتيّات.

مبحث الدّراسة التّحليليّة:

4. الطّباق في القرآن الكريم وفي آيات الجفاف والخصب:

1.4. الطّباق في القرآن الكريم :

يعدّ الطّباق الفنّ البلاغي الوحيد، الذي أتى بكثرة في القرآن العظيم؛ لما له من أثر كبير في الدّلالة على معاني القرآن العظيمة، لذا فإنّنا نجده قد ذكر حوالي 1361 مرّة، وذلك في معظم سور القرآن الكريم، خاصّة الطّوال منها، إلاّ سبعة عشر سورة من سور القصار لم يرد فيها (في آية واحدة) وهذه السّور هي: (عبس، التّين، العلق، القدر، البيّنة، الزّلزلة،

العاديات، القارعة، التّكاثر، العصر، الهمزة، الفيل، الماعون، الكوثر، النّصر، المسد، الفلق)، أمّا المقابلة فوردت حوالي: 31 مرّة، في حوالي ثلاث وعشرين سورة: (آل عمران، النّساء، الأعراف، التّوبة، هود، الرّعد، إبراهيم، الإسراء، الحجّ، القصص، فاطر، الزّمر، غافر، الشّورى، محمّد، الفتح، الحجرات، الحديد، الحشر، النّازعات، الشّمس، اللّيل، الكافرون)، فالمقابلة أتت قليلة مقارنة مع الطّباق وإن كان غرضهما واحد، هذا العدد الذي قدّمناه للطّباق هو خاصّ بالطّباق المذكور في القرآن وفي آية واحدة، أمّا الذي بين الآيات فقد ورد منه الكثير، وغالبه كان في السّور القصار، إلاّ سورة واحدة طويلة: وهي سورة يوسف عليه السّلام.

2.4. آيات الجفاف والخصب في القرآن الكريم:

الآيات التي تدل على الجفاف وعلى الخصب أو رغد العيش كثيرة هي في القرآن الكريم، ودلالتها أحيانا مباشرة ظاهرة لا تحتاج إلى اجتهاد، وأحيانا غير مباشرة أي: خفية تحتاج إلى تمعن واجتهاد، كما قد تكون تلك الآيات في القصص وخارجها؛ لأن الكثير من الأمم السابقة أخذت بالسنين وبشدة المؤونة، أما عن الطرق التي انتهجتها في الدّلالة على الظّاهرة فهي كالآتي: سبب النّزول، تعدّد أوجه القراءات، استعمال الألفاظ الموحية والدّالّة، كثرة الوصف، سياق الآيات، مفهوم المخالفة: فإن كانت الآية تدل على الخصب تصبح بمفهوم المخالفة تدل على الجدب والعكس صحيح.

3.4. تحليل آيات الجفاف بيانيا:

آيات الجفاف والخصب وكما ذكرنا سابقا كثيرة جدا، لكن سنكتفي في هاذين التحليلين بالآيات التي ورد فيها الطباق مع صورة بيانية، إما قبلها وإما بعدها وإما في طياتها، وبآيتين فقط في كل تحليل.

الآية الأولى: قال تعالى: " ***قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون***".[سورة الأنعام، الآية: 65]. تدلّ الآية على الجفاف من خلال قوله تعالى: " ***عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم*** " الذي يحتمل في طيّاته معنى الجفاف، قال بعض المفسّرين من مثل: أبو حيان الأندلسي في قوله تعالى: " ***من فوقكم*** ": هو حبس المطر، و" ***من تحت أرجلكم***": منع الثّمرات، ينظر: (أبو حيان، البحر المحيط، صفحة : 155، ج 04)، وهذا المعنى احتماله وارد في الآية.

لقد ورد الطباق في الآية الكريمة في قوله تعالى: " ***فوقكم*** "، " ***تحت أرجلكم***"، لتأكيد معنى البعث (العذاب) وتقويته، وإضافة الأرجل إلى التحتية كان من باب إفادة الإحاطة والشمول.

وأما ما جاء في الآية الكريمة من صور بيانية، فإننا نجد **الكناية** ظاهرة بارزة في قوله تعالى: " ***قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم*** "، وهي كناية عن العذاب الشديد الغامر الذي يحيط بهم، وخصّ بالذكر: من فوق ومن تحت؛ لأنهما أبلغ في تصوير العذاب الذي يقهرهم به الله عز وجل إن شاء، وأشد وقعا في النفس من تَصَوُّرِهِ آتيا من يمين أو شمال، فالوهم قد يخيل للإنسان أنه قد يقدر على دفع العذاب من يمين أو شمال، أما العذاب الذي يصب عليه من فوق، أو يأخذه به من تحت، فهو عذاب غامر قاهر مزلزل، لا مقاومة له ولا ثبات معه، والكناية موحية بهذا الإيحاء القوي في حس الإنسان ووجدانه، كما أنها تقرر حقيقة قدرة الله على أخذ العباد بالعذاب من حيث شاء وكيف شاء. ينظر: (أحمد فتحي، الكناية في القرآن الكريم، صفحة : 309).

الآية الثانية: قوله تعالى: " ***ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون*** ". [سورة الروم، الآية: 41]، تدلّ الآية على الجفاف من خلال لفظة:" ***الفساد***"، التي فسّرها بذلك نخبة من العلماء الأجلاّء، منهم على سبيل المثال: زيد

بن رُفيع: الذي قال في قوله تعالى: " ***ظهر الفساد*** "، يعني: " انقطاع المطر عن البرّ يعقبه القحط، وعن البحر تعمى دوابّه ". (ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، صفحة : 34، مج 11)، ولفظة: "الفساد"، تدل على خطورة الجفاف، وما يترتب عليه من أضرار ومساوئ، وقال الإمام النحّاس: في معناه (الفساد) قولان : ينظر:(ابن السري، معاني القرآن وإعرابه للزجاج، صفحة : 275، ج 03).

أحدهما: ظهر الجدب في البرّ، أي: في البوادي وقُراها، وفي البحر أي: في مدن البحر،... أي: ظهر قلّة الغيث والعشب وغلاء السّعر، عقاب بسبب بعض الذي عملوا.

والقول الآخر: أنّه أظهرت المعاصي من قطع السّبيل والظّلم، فهذا هو الفساد على الحقيقة، والأوّل مجاز إلاّ أنّه على الجواب الثّاني فيكون في الكلام حذف واختصار دلّ عليه ما بعده، ويكون المعنى: ظهرت المعاصي في البرّ والبحر، فحبس الله عنهما الغيث، وأغلى سعرهم؛ ليذيقهم عقاب بعض الذي عملوا لعلّهم يتوبون.

والطباق ظاهر في قوله تعالى: " ***البر*** " و " ***البحر*** "، على قول بعض المفسرين الذين قالوا بأن المراد بالبرّ: هو البرّ المعروف، وبالبحر: البحر المعروف، من هؤلاء صاحب تفسير البحر المحيط حيث قال: " والظّاهر: مراد ظاهر البرّ والبحر، وقال الحسن: وظهور الفساد فيهما: بارتفاع البركات، ونزول رزايا وحدوث فتن، وتقلّب عدوّ كافر "، (أبو حيان، البحر المحيط، صفحة : 171، ج 07)، ثمّ قال: " وهذه الثّلاثة توجد في البرّ والبحر ". (أبو حيان، البحر المحيط، صفحة : 171، ج 07).

والفائدة من الطباق هنا هو لتأكيد ظهور الفساد مما يدل على كثرة ظهور المعاصي والكبائر، ولبيان حقيقة علمية مفادها: أنّ الجفاف البحريّ يتبع الجفاف البرّي لا محالة، عن ابن عبّاس قال في قوله تعالى: " ***ظهر الفساد*** ": " أجدبت الأرض وانقطعت مادّة البحر"، (الألوسي، روح المعاني، صفحة : 47، ج 21)، وقال ابن عطيّة: " إذا قلّ المطر قلّ الغوص، وأخفق الصيّادون وعميت دوابّ البحر ".(الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، صفحة : 512، ج 18)،وتأكيدا لقول ابن عبّاس وابن عطيّة توصّلت دراسة علميّة مفادها: أنّ البيئات الثّلاث (برّ جوّ بحر) وما بكلّ منها من مختلف صور الأحياء والجمادات تشكّل حلقات مترابطة يتأثّر بعضها ببعض، وأيّ إخلال بنظام إحداها يؤثّر سلبا على النّظامين الآخرين، وثبت علميّا أيضا أنّه إذا ارتفعت درجة الحرارة بكثير فإنّ الكتل الجليديّة ستذوب ممّا يؤثّر سلبا على الكائنات البحريّة. ينظر: (عبد الله الإمام، شبهة نفي الإعجاز العلمي عن قوله تعالى: " ظهر الفساد في البر والبحر " مقالة في شبكة الإنترنيت).

فإذا حلّ القحط – لا قدر الله - بسبب ندرة المياه وارتفاع في درجات الحرارة، سيظهر فساد في البرّ (فساد في التّربة، فساد في المياه الجوفيّة وتلوّثها، وفساد في النّباتات)، وفساد في البحر. ينظر: (عبد الله الإمام، شبهة نفي الإعجاز العلمي عن قوله تعالى: " ظهر الفساد في البر والبحر " مقالة في شبكة الإنترنيت).

ومما جاء من الصور البيانية في الآية الكريمة الاستعارة: وذلك في قوله تعالى: " ***ليذيقهم بعض الذي عملوا*** "، وهي استعارة مكنية، أثبت فيها المشبه وهي بعض السيئات التي عملوها، وحذف منها المشبه به وهو العقاب أو الألم ورمز له بشيء من لوازمه وهو الإذاقة، قال الإمام طاهر بن عاشور: " الإذاقة: استعارة مكنيّة؛ شبّه ما يصيبهم من الآلام فيُحسّون بها بإصابة الطّعام حاسّة المطعم ". (الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، صفحة : 113، مج 21)، للدّلالة على شدّة الألم، المترتّب على عظم العقاب، والمتأتى من عظم الذنب، فانظر إلى حسن مجيء الاستعارة بعد الطباق في الدلالة على السببية وفي تأكيد المعنى العام للآية.

4.4. تحليل آيات الخصب بيانيا:

الآية الأولى: قوله تعالى: " ***وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون، ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون، ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون*** ". [سورة الأعراف، الآية: 94 – 96].

ما يدلّ في الآية الكريمة على الخصب والسّعة ورخاء العيش وكثرة الثّمار والنّعم قوله تعالى: "***لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض***".(الألوسي، روح المعاني، صفحة : 10، ج 09)، **أما الطّباق:** فهو بين: السيّئة والحسنة، التي تعني الغنى ورخاء العيش الذي يعين على اكتساب الحسنات، إلاّ أنّ النّفع فيها لا يبلغ مبلغ البركة في الآية الثّانية، ينظر: (الألوسي، روح المعاني، صفحة : 18، ج 09)، وهناك طباق أيضا: بين الضرّاء والسّرّاء، وبين: آمنوا

وكذّبوا، وبين: السّماء والأرض، وقدمت السماء على الأرض من باب السّببيّة، لأنّه لا يمكن أن تفتح بركات الأرض دون أن تفتح بركات السّماء.

والتصوير البياني جاء متمثلا في**الاستعارة المكنيّة** في قوله تعالى: " ***لفتحنا عليهم بركات***"، حيث صور القرآن الكريم حال الخيرات والبركات بحال البيوت، وكأنها محصورة خلف الأبواب المستغلقة، فأبقى على المشبه وهو البركات، وحذف المشبه به وهي الأبواب ورمز لها بشيء من لوازمها وهي " فتحنا "، قال الإمام طاهر بن عاشور: " الفتح هنا استعارة للتّمكين...، وتعدية فعل الفتح إلى البركات هنا استعارة مكنيّة بتشبيه البركات بالبيوت في الانتفاع بما تحتويه، فهنا استعارتان مكنيّة وتبعيّة "، (الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، صفحة : 21، مج 09)، أمّا اعتبارها استعارة تبعيّة؛ فلأنّه شبّه تيسير البركات عليهم بفتح الأبواب في سهولة التّناول، أو هي مجاز مرسل في لازمه وهو التّيسير، ينظر: (القاسمي، محاسن التأويل، صفحة : ج 02، ص 2825)، ويكون معنى الآية أي: " ليسّرنا عليهم الخير من كلّ جانب ". (الألوسي، روح المعاني، صفحة : 10، ج 09).ففي الاستعارة دلالة على تيسير البركات عليهم، وعلى كثرتها، وما أعان على هذا المعنى الطباق الموجود بين السماء والأرض، فانظر كيف يقدم الطباق خدماته الرائعة للصور البيانية من خلال دلالاته اللغوية الكثيرة.

ولفظة: الفتح تحمل معنى: سيلان شيء وتدفّقه بكثرة، وارتباطها بالبركة، قد يدلّ على نزول الأمطار الكثيرة النّافعة المباركة، أو قد يدلّ على تكثير النّعم والخيرات بصفة عامّة.

الآية الثانية: قوله تعالى: " ***ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم، ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون*** ". [سورة المائدة، الآية: 64- 66].

تدل الآية الثانية وبدلالة صريحة وواضحة على الخصب؛ لأن معناها وكما ذكر المفسرون هو كالآت: ولو أنّهم عملوا بأحكام التّوراة والإنجيل التي منها الإيمان برسالة محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ولم يحرّفوهما، واتّبعوا المنزّل إليهم من ربّهم في سائر كتب الله والتي

منها القرآن، لتمتّعوا بالرّزق الواسع والعيش الهنيء من كلّ جانب، ينظر: (القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، صفحة : 87، ج 08)، قال ابن عبّاس وغيره في قوله تعالى: " ***لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم*** " : " يعني المطر والنّبات "،(القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، صفحة : 87، 88، ج 08).

والطباق أتى في الآية الثانية مركبا مع صورة بيانية، وهي إما مجاز، أو استعارة مكنية، فمن قال **مجاز:** فإنه حمل قوله تعالى: " ***لأكلوا من فوقهم*** "، على معنى: الرزق، فإن في الآية: مجاز ونوعه مجاز بالحذف، جاء في التّفسير: " لأكلوا الأرزاق النّازلة عليهم من فوق من السّماء بإنزال مباديها، والأرزاق النّابتة من تحت أرجلهم أي: ممّا تحتها من الأراضي الخصبة المنبتة المثمرة ". (محمد عبد الكريم، مواهب الرحمن في تفسير القرآن، صفحة : 179، ج 03).

وإذا قدّر المحذوف على أنه: المطر كما جاء في بعض التفاسير، فإن الصورة تتغير وتصبح عندنا في الآية الكريمة استعارة مكنية، حيث صرح فيها بالمشبه وهو الأكل أو الغذاء وحذف فيها المشبه به وهو المطر ورمز له بأحد لوازمه وهو الفوقية، أو وجه الشبه فهو النعمة الكبيرة الموجودة في كليهما، أما المعنى المكنى عنه بهذا التعبير الكنائي: " ***لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم*** ": فهو السعة في الرزق على المؤمنين المتقين، رزق مبروك لا يتحدد بالجهتين المذكورتين، وإنما الغرض من هذا الطباق فهو الدلالة على الوفرة تعم البلاد بالخيرات والثمار والأرزاق والتي ينالها العباد بشرط الإيمان والتقوى، (أحمد فتحي، الكناية في القرآن الكريم، صفحة : 312)، قال صاحب البحر المحيط: "وظاهر قوله: " ***لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم*** ": أنّه استعارة عن سبوغ النّعم عليهم، وتوسعة الرّزق عليهم، كما يقال: قد عمّه الرّزق من فرقه (من قرنه: حدّ الرّأس وجانبها، ورأس كلّ عال قرنه)،(الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، صفحة : 464، ج 10)، إلى قدمه ولا فوق ولا تحت "، (أبو حيان، البحر المحيط، صفحة : 538، ج 03)، وذكر الفوقيّة - الذي هو مهبط الغيث -، وذكر التّحتيّة - مكان الإنبات - فقط دون غيرهما من الجهات لأنّهما المناسبين لذكر النّعم والرّزق.

فالتصوير في الآية الكريمة وبالاستعانة بالطباق أستطاع أن يبين المعنى المكنى عنه بتصويره تصويرا حسيا مؤثرا، وقرر سنة من سنن الله تعالى وهي أن الإيمان والتقوى شرط لنعيم

الدنيا والآخرة، ولكثرة الرزق المبارك في الحياة الدنيا. ينظر: (أحمد فتحي، الكناية في القرآن الكريم، صفحة : 312).

النّتائج:

في ضوء دراستنا للطّباق في القرآن الكريم يمكن إجمال أبرز نتائج البحث في النّقاط الآتية:

- أنّ الطّباق لم يأت لزخرفة الآيات، ولكن أتى لأغراض دلاليّة بحتة، منسجما مع السّياق النصّي، ودليل على أنّ القرآن كان هدفه الأسمى هو تبيين المعنى وتأكيده وإيصاله إلى المتلقّي في أبهى حلّة دون أن يترك في نفسيّته أدنى شكّ أو ريب.
- يعدّ التّصوير البياني حلقة من حلقات النّظم القرآنيّ التي تلاقت مع غيرها من الأساليب والتي من بينها أسلوب الطّباق فتآزرت معها، فتأثّرت بها وأثّرت فيها، ليلتقي الكلّ على حقيقة واحدة هي الكشف عن الإعجاز القرآنيّ.
- أنّ الصّور البيانيّة تزداد وضوحا وإيحاءا وبهاء، من خلال ارتباطها وفي كثير من المرّات بالطّباق.
- أنّ الطّباق إذا أتى بعد صورة بيانيّة أو قبلها فإنّه يؤكّد المعنى أكثر، أمّا إذا أتى داخل صورة بيانيّة أو في طيّاتها فإنّه يزيّنها ويزيدها بهاء وقوّة بالإضافة إلى تأكيده للمعنى وترسيخه.
- أنّ المواعظ أكثر النّاس عنها غافلون، فاقتضى الحال المبالغة والتّأكيد للإيقاظ والتّنبيه، ورفع العذر، وتثبيت حجّيّة العقاب.
- أنّ تقديم أحد المتضادّين في القرآن الكريم، لم يكن عبثا، وإنّما كان له دلالات وجماليّات، علمها من فقه اللّغة وفقه كلام الله تعالى.

- أنّ مصدر الجمال في الطّباق هو إثارة الانتباه إلى الفكرة، وإيقاظ الشّعور للموازنة بين الشّيء وضدّه، وفي ذلك تحقيق للإمتاع الفنّي، وتوكيد المعنى، وإرساؤه في النّفوس، كما يزداد به الأسلوب جمالا ووضوحا.

الخاتمة:

وفي الأخير نقول أنّ الأساليب البلاغيّة بمختلف أنواعها تعدّ سمة من سمات الإعجاز الذي نزل به القرآن الكريم، لذا وجب الإكثار من الأبحاث في هذا الجانب من اللّغة، خاصّة من

النّاحية الصّوتيّة، لارتباط علم البلاغة والكثير من العلوم بعلم الصّوتيات، فمعرفة مثل هذه الفنون البلاغيّة، تعين المؤمن للوصول إلى المعاني الحقيقيّة للآيات القرآنيّة، كما أنّها تعدّ وسيلة لفهم القرآن من جانب الأساليب ومن جانب الدّلالة على المعنى، كما يعرف المؤمن من خلالها عظمة بديع كلام الله سبحانه وتعالى.

قائمة المراجع:

- **القرآن الكريم.**

●المؤلّفات:

– ابن الأثير (1973)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، دار نهضة مصر، القاهرة.

– ابن حجة الحموي، خزانة الأدب وغاية الأرب، دار هلال، الطبعة الأولى، 1987م.

– أبو هلال العسكري، الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق: علي محمد البجاوي، أبو الفضل إبراهيم، دار عيسى البابي الحلبي، القاهرة، 1952م.

– الأزهر الزناد، دروس البلاغة العربية نحو رؤية جديدة، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1992م.

– صدر الدين ابن معصوم المدني، أنوار الربيع في أنواع البديع، تحقيق: شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان، العراق، الطبعة الأولى، 1388هـ، 1968م.

– الخطيب القزويني، تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع، قدم له الدكتور ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، 1423هـ، 2002م.

– حيدر حسين عبيد، المنهج البلاغي عند الجرجاني والقزويني في كتابيهما الأسرار والتلخيص دراسة موازنة، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، 2013م.

– أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، الدار العربية للموسوعات، لبنان، الطبعة الأولى، 1427هـ – 2006م.

– ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت، الطبعة الثالثة، 1414هـ.

– أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، حققه: محمود محمد شاكر، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، (دت).

– إبراهيم بن السري (ت 311هـ)، معاني القرآن وإعرابه للزجاج، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، 1408هـ – 1988م.

– السيد محمود الألوسي البغدادي (ت 1270هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، لبنان، (دت).

– محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (ت 671هـ)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، لبنان، الطبعة الأولى، 1427هـ – 2006م.

– أحمد فتحي رمضان الحياني، الكناية في القرآن الكريم (موضوعاتها، ودلالاتها البلاغية)، دار غيداء، الأردن، الطبعة الأولى، 1435هـ – 2014م.

– محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي (ت 745 هـ)، البحر المحيط، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، 1413هـ – 1993م.

– محمد جمال الدين القاسمي (ت 1332هـ)، محاسن التأويل، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، 1376هـ – 1957م.

– محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية (دت).

– محمد عبد الكريم المدرس، مواهب الرحمن في تفسير القرآن، عنى بنشره: محمد علي، دار الحرية، بغداد، الطبعة الأولى، 1406هـ – 1986م.

●المقالات (مواقع الإنترنيت):

– الأستاذ خليفة؛ **دروس في البناء الفني (البلاغة)**، 02/03/ 2018م، الموقع: محفظة الأستاذ خليفة: https:// sites. Google. Com / site / mihfadha / balagha

– عبد الله الإمام، شبهة نفي الإعجاز العلمي عن قوله تعالى: " ظهر الفساد في البر والبحر " مقالة في شبكة الإنترنيت، بيان الإسلام في الرد على الافتراءات والشبهات، www.bayanelislam.net.